البديل

للكاتب الفرنسي فرنسوا كوبيه

بقلم الأديب عادل الجمال

كان يبلغ العاشرة من عمره عند ما قبض عليه للمرة الأولى بتهمة التشرد .

وتكلم حينئذ قائلاً للقضاة :

« إنني أدعى جين فرانسوا ليتربك ، عملت لمدة ستة أشهر مع الرجل الذى كان يغنى ويلعب على حبل رفيع مشدود بين مصابيح ميدان « الباستيل » ، وكنت أردد معه المقاطع الأخيرة لكل أغنية كان يلقيها ، ثم كان على بعد ذلك أن أمادى قائلاً : « كل ذلك بعشرة سنتيمات ... إنه أجر ضئيل لسماع تلك الأغاني الحديثة . وكان الرجل دائماً ثملاً ... فتعود أن يضربنى ... ولذلك هربت منه فقبض على الجنود أمس مساء . وكنت قبل ذلك مع الرجل الذى يبيع « المناقض الريشية » . أما أمى ... فغسالة تدعى « إديل » ... كانت تعيش فى وقت ما مع رجل على أرض مونمارتر . ولقد كانت امرأة نشيطة تحبنى . فادخرت مبلغاً من المال كان نتيجة اشتغالها مع عدة زبائن موفورى النعمة . وفى أيام الآحاد ... كانت ترسلنى إلى فراشى فى ساعة مبكرة ... ثم تذهب هى إلى أحد الرقاص ... أما فى باقى أيام الأسبوع ... فكانت ترسلنى إلى « مدرسة الفرير » حيث تعلمت القراءة .

وتعود ضابط يدعى « دى فيل » أن يقف عند نافذة منزلنا ليبادل أمى الحديث ، إذ أنه كان يقطن نفس الشارع الذى كنا نقطنه ... كان رجلا ... وشاباً ... حائزاً على وسام من « كريميه » ... فتزوجا . و نعكست الأمور فلم يعبأ بى ... كما أنه قد أثار أمى علىّ ... كانوا كلهم يحقدون علىّ لغير ماذنب اقترفته .. فكنت أخرج من المنزل إلى حى كليش حيث تعلمت الوحدة والبكاء .

وفقد زوج أمى منصبه كما فقدت هى عملها ... فاعتادت أن تخرج باحثة عن عمل لتعول زوجها ، وبذلت فى ذلك مجهوداً كبيراً حتى ماتت فى « الأمبواسير » .

واغرورقت عينا الطفل بالدموع .. ثم تمتم قائلا: « لقد كانت امرأة طيبة » ... ومنذ ذلك الحين وأنا أعيش مع بائع المناقض والمغني السابق الذكر .

وصمت برهة ثم قال :

والآن ... هل ستسجنوننى ؟ ؟

قال كل ذلك بطلاقة رجل مثقف مع أنه كان من أبناء الشارع ... قصير القامة تعلوه رأس يغطيه شعر أسود . لم يقاطعه أحد ... ولم يسأله أحد ... فقط أرسلوه إلى إصلاحية الأحداث .

لم يكن يجيد أى عمل يدوى ... والشىء الوحيد الذى كان يتقنه هو الاستراحة على المقاعد الخشبية . ولكنه فوق ذلك كان مطيعاً وهادئاً هدوءاً طبيعياً . وحين أكمل السابعة عشرة من حياته نبذ مرة أخرى ... وألقى طريداً شريداً فى شوارع باريس . ولتعاسته وجد كل رفاقه فى الاصلاحية يمتهنون مهناً غير مشرفة ... ملبين بذلك نداء طبيعتهم الدنيئة ... فبعضهم ... كان يمسح الأحذية على أبواب الأوبرا ... والبعض الآخر يتشاغل بتصيد

ما ينفع من الفاذورات ، فلم يكد ينقضي على خروجه من منزل الاصلاح عدة شهور ... حتى قبض عليه مرة أخرى بتهمة سرقة حذاء بال قديم من حانوت إسكاف ... سرقة ما فكر فى الاقدام عليها إلا بعد أن أحس ببرودة الجو تتمشى في عظامه ... وكانت النتيجة قضاء عام فى سجن « سانت بلاجيه » حيث أجبر على أن يترأس طغمة الثائرين الأحداث. وعاش يغمره التعجب بين تلك الفئة من المسجونين.. وجلهم صغار السن يتشابهون فى الملبس ويتكلمون بأصوات عالية ... وكانوا قد اعتادوا الاجتماع فى غرفة أكبرهم سناً ... وقد كان هـذا تمساً يبلغ الثلاثين ... قضى معظمها فى السجون وبالأخص منها سجن « سانت بلاجيه » ... أما غرفته ... فكانت أكبر غرفة فى السجن ... ممتلئة جدرانها بالرسوم الكاريكاتورية ... ومن نافذتها كان بامكان المستطلع أن يرى كل باريس بمبانيها الشاهقة وخوافيها المظلمة ... كما كان باستطاعته أن يرى على البعد خطا من التلال يبدو قريباً جداً من السماء الزرقاء . وفى تلك الغرفة كان المسجونون الأحداث يتناولون طعامهم .

وانقضى عام ... وراح مرة أخرى يجوس خلال باريس مراقباً من البوليس حيث أصبح من هؤلاء المشبوهين الذين يقبض عليهم بمجرد الشبهة فقط .. ففر إلى أورشليم ولكنه استقبل هناك بواجهات الجرائد وهى تتحدث عن الفار « التيريك » و « السجين التيريك » ... وأخيراً ... « المجرم التيريك »

ومر عامان على خروجه من السجن ... يأكل حيث كان ... ويقضي الليل فى أحد الخنادق الحقيرة إن لم يكن فى العراء . كان يرتدى قبعة رمادية مستقرة فوق مؤخرة رأسه ... وفى قدميه حذاء من القماش يعلوه سروال أبيض قصير . وعنـد ما استطاع أن يتحصل على خمسة وعشرين سنتيما .. جز شعره وراح يحترف الرقص فى « مونبارناس » ولكنه لم يفلح .. فاحترف البطالة ... ولكنه لم يهنأ بحرفته الأخيرة ... إذ قبض عليه مع جمع من رفاقه بتهمة سرقة المخمورين وحكم عليه بالسجن عامين فى « پوليس » حيث تعلم هناك كيف يسلك طريق الاجرام — فلم يكد ينقضى ستة شهور على فراره حتى اعتقل ثانية فى حادث سطو حكم عليه فيه بخمسة أعوام قضى صيفها وشتاءها يعمل تحت أشعة الشمس صيفاً محتملاً ضربات السياط ، وينام تحت برد الشتاء القارس فى العراء ... خمسة أعوام مرت أرسل بعدها إلى « فيرنون » حيث اشتغل قليلا فى أعمال اللاحة . وعند ما صار متشرداً لا يمكن إصلاحه .. استطاع الافلات من أسره ورجع مرة أخرى إلى باريس ، حاملا معه ما ادخره وكان مبلغاً يقرب من ستة وخمسين فرنكا . كان يتخفى نهاراً ، أما ليله فكان يقضيه فى نزل امرأة عجوز ، قدم لها نفسه على اعتبار أنه بحار قديم فقد أوراقه فى مركبه الغريق ... وأوهمها أنه يبحث عن عمل ويرجو أن تتكلل مساعيه بالنجاح فى وقت قريب

وقادته قدماه ذات يوم إلى حى « مونمارتر » حيث ولد ... وفى تلك اللحظة هاجته ذكرى بعيدة .. ذكرى أجبرته على التريث أمام « مدرسة الفرير » حيث تعلم القراءة . وفتح باب المدرسة لحرارة الجو ... فكان من السهل على المار فى تلك الآونة أن يرى فصول المدرسة كما رآها فرنسوا . لم يتغير فيها شيء ، فها هو ذا النور الساطع يتلألأ فى الداخل .. وها هى ذى الأدراج تفصلها الممرات.. ثم ... ها هى ذي الموائد المغطاة بطبقة من الكتب والأقلام ... و ... الخرائط التى طالما أشير عليها

إلى مواطن الحروب . ووجد فرنسوا نفسه دون وعي أو تفكير يقرأ ما قد كتب على السبورة الخشبية السوداء

« ستكون الراحة في السماء .. لهؤلاء الخاطئين المستغفرين ... وسيجدون فيها سعادة أكثر ألف مرة من هؤلاء الذين لايجدون شيئاً يستغفرون منه »

لقد كانت إذ ذاك ساعة اللعب دون شك ، لأن المدرس كان قد ترك مقعده . . . وجلس على حافة مائدة وقد التف حوله جمع من الصبية يستمعون في شغف إلى قصة كان يرويها لهم . أي مظهر طاهر بريء كان يشع من ذلك الوجه الشاب الملتحى وهو في عباءته الطويلة السوداء وربطة عنقه البيضاء التي تتناقض تماماً مع حذائه الكبير وشعره المشعث . وانتهى القس المدرس من قصته فأعقبها بضحكة هانئة . . . أعقبتها ضحكات تعالت من هؤلاء الذين كانوا ينصتون إليه

أي حياة سعيدة كان يحياها هؤلاء المجدودون !

وهاجت فرنسوا في وقفته المتأملة ... ذكرى الكلمات التي لم يمض على قراءته لها بضع دقائق فتمتم قائلا لنفسه بحزن « لو أنني لم آت متأخراً في النهاية ؟ ولو كان في الامكان أن أرجع ثانية كالآخرين فآكل خبزي الجاف بشهية وأملأ أجفاني بنوم لا تشوبه الأحلام ! وهز رأسه بيأس ولكنه سرعان ما أردف قائلا وفي عينيه بريق خاطف :

« إنه لجاسوس ماهر ذلك الذي يستطيع أن يستدل عليّ الآن ... فلحيتي التي أزلتها هناك . . . نبتت هنا أشد قوة وغزارة .. إن الانسان ليستطيع أن يختفي في مكان ما على الجبل . . . أما من جهة العمل . . . فمن السهل الحصول عليه، إذ أن الأبنية تتعالى بسرعة هائلة . . . ومن الطبيعي أن البنائين يحتاجون لمساعدين يتقاضون أجراً قدره ثلاثة فرنكات يومياً . . . ثلاثة فرنكات . . . إنه أجر لم أحلم به يوماً من أيام حياتي . . . سأنسى ... نعم لابد أن أنسى .. والنسيان هو ما أنا في حاجة إليه »

وكان أميناً في تنفيذ فكرته التي اعتزمها ... فلم تكد تنقضي ثلاثة أشهر حتى أصبح رجلا غير الرجل ، فلقبه رئيس العمل الذي كان يعمل عنده برجله المفضل . وبعد أيام انقضت تحت أشعة الشمس القائظة وسط الأوحال ، يميل تارة ويستقيم أخرى ليتناول آلات البناء من الرجل الواقف تحته فيوصلها إلى ذلك الذي استقر على قطعة من الخشب ذهب ليتناول غداءه في حانوت قريب ... منهوك القوى تؤلمه قدماه ... بينما كادت يداه تتقدان وعيناه تسحان الدموع من تأثير حبيبات الرمال التي كانت تداعب أجفانه . ولكنه على رغم ذلك كان راضياً عن نفسه ، ممسكا بما كسبه من نقود في منديل استقر في يده . كان يخرج الآن دون خوف ، فقد كان قناع الجير الأبيض الطبيعي خير مخف له عن عيون الرقباء حتى أنه حين مر برجل البوليس نظر إليه هذا الأخير نظرة كلها عطف ورثاء ، فنسي آلامه كلية ، فلقد كان حراً طليقاً

وأخيراً ... أوه ... يالله ... لقد وجد صديقاً

كان عاملا مثله يدعى « سافنيان » فلاحاً أتى إلى باريس بحصا في مؤخرتها « صرة » يكاد كتفه ينوء تحت ثقلها . أحبه حين فرنسوا لسذاجته وطيبته وأمانته ... أحبه لكل تلك الأشياء التي افتقدها هو في زمن مضى . وكان سافنيان بطبيعته ضعيفاً . يترك الأمور لتأخذ مجراها الطبيعي فعمل حين على مساعدته مساعدة جدية ، وعاشا سوياً في منزل صغير مريح وأشركا معهما لحاجتهما دخيلا

عجوزاً شحيحاً ... يسعى لادخار بعض المال حتى يمكنه أن يشترى قطعة من الأرض فى وطنه . وكان جين فرنسوا وسافنيان دائماً متحدين ، فى أيام العطلة كانا يتمشيان فى ضواحى باريس . ويتناولان غداءهما تحت شجرة فى أحد فنادق الضاحية التى يكونان قد استقرا بها . وتعلم فرنسوا من صديقه كل الأشياء التى يجهلها عن القرية .. فعرف أسماء الأشجار والزهور والنباتات ، وأصغى كثيراً لآلاف من الحكايات تصف حياة القرية ، كان منها « أغاريد الربيع ، وقصف الشتاء ، وصوت الطواحين على حافة المياه ...» وأخيراً ... اكتشف جين فرنسوا فى روحه ناحية حالمة كان يجهلها

لم يكن يزعجه إلا رغبة سافنيان الشديدة فى معرفة شىء عن ماضيه ، فى بعض الأحيان كانت تمرق من بين شفتيه بعض كلمات عن اللصوص والطاريدين ، فكان يحس فى نفسه بآلام تشبه تلك التى تنتج عن جرح تفتح بعد أن كاد يندمل ، وخصوصاً بعد ما سأله عن أسرار المدينة المرحة الخفية الغامضة عليه . كان يتهرب من الاجابة إذ رأى فيها خطراً على صديقه الذى كانت أنوار الحانة تؤثر فيه تأثيراً كبيراً فتجذبه إليها باطراد يعجز عن صده . وعند ما أقبل الربيع ، ابتدأ سافنيان يتوجه منفرداً إلى المراقص بعد أن كان يهاب الدخول فيها . تجرأ ذات يوم وولج باب إحدى الحانات الخارجى . ومن ذلك الحين ابتدأ فرانسوا يلمس التغير الذى طرأ على صديقه . فقد تبدلت عاداته وتصرفاته ، وأصبح بليداً خاملا ، شريراً ... لا يدفع ما عليه من ديون . فكان يتألم دون أن يتكلم إذ لم يجد فائدة من نصائح سبق تكرارها له وحدث ذات مساء بينما كان صاعداً إلى غرفته ساهماً يفكر أن تعالى إلى سمعه قبل أن يدخل صوت غاضب ميز فيه صوت الرجل العجوز الذى يشاركهما مسكنهما وصوت صاحب الدار وألحت عليه رغبة قوية ليتسمع حديثهما

وتكلم العجوز قائلا بغضب :

« نعم ... إننى واثق من أن أحداً قد اغتصب حقيبتى ونشل منها ثلاثة جنيهات كنت أخفيها فى صندوق صغير ، كما أننى متأكد من أن ذلك السارق لا يمكن إلا أن يكون أحد رفيقى اللذين أنام معهما . هذا إن لم تكن السارقة هى الخادمة ماريا ، والمسألة تختص بك تماماً كما تختص بى ... أفلست أنت صاحب المنزل ؟ وأقسم أننى سأسوقك إلى المحكمة فوراً إن لم تدعنى أنقب عن ذهبى فى حقيبتيهما حالا آه يا ذهبى الضائع .. لقد كان هنا بالأمس وسأخبرك كيف كانوا حتى إذا عثرنا عليهم مستقبلا فلا يكون لأى إنسان أى شك فى صدق قولى . نعم ... إننى أعرف قطعى الذهبية الثلاث ، وأنا أراها أمام عينى الآن تماماً كما أراك . كانت الأولى جديدة تحمل صورة الامبراطور والثانية قديمة جداً . أما الثالثة فكان عليها أثر أسنان كانت تختبر نقاوتها . إنهم سوف لا يضحكون على ... هل تعلم أننى فى حاجة إلى قطعتين أخريين لأكمل باقى ثمن الأرض . هيا وتعال لتبحث معى فى تلك الأشياء وإلا فسأنادى البوليس ... هيا . وتكلم صاحب المنزل قائلا :

— حسن ... سأذهب للبحث عنهما مع ماريا ولكننى ... وبعد أن أجبرتنى أنت على ذلك ... سألقى المسئولية على عاتقك إن غضب البناءان »

كانت حياة جين فرنسوا مملوءة بالمتاعب والمفاجآت . . . نعم إنه تذكر جولات سافنيان الليليه . . ولكنه لم يكن ليصدق أنه كان لصا . وتعالى

إلى أذنيه صوت العجوز فى نبراته الغاضبة ... تخيل إليه أنه يستمع لدقات قلبه «هاهى ذى .. هاهى ذى .. قطع الجوهرة .. انظر أيها العجوز ياصاحب النزل .. إنها تماماً كما أخبرتك ... وبل للسارق ... إنني فى انتظاره وسيكون السجن بانتظاره هو الآخر »

وفى تلك اللحظة سمع جين فرانسوا وقع خطوات سافنيان وهى تنتقل ببطء على درجات السلم متجهة إلى أعلى .. يالله .. إنه ذاهب لملاقاة حتفه .. يجب أن ينقذه

ثم فتح باب الغرفة ودخلها وعلى وجهه سيماء تعب شديد ... فرأى صاحب النزل والخادمة قابعين فى ركن من الغرفة ... بينما كان العجوز راكعا على ركبتيه يقبل جنيهاته الذهبية ... وهتف قائلا بصوت جهورى :

— ماذا تفعل ؟ . . إننى أخذت النقود من حقيبتك وخبأتها فى حقيبة زميلى ... ثم إننى لص ولكننى لست بنذل — هيا واطلب البوليس فلن أحاول الهروب . . . ولكننى أود أن أقول كلمة لسافنيان على انفراد ... ها هو ذا قد جاء

بوغت سافنيان حين اكتشفت جريمته فذهل ووقف بعيدا مضموم الذراعين . وأسرع فرانسوا ناحيته وجذبه إليه بقوة كما لو يريد أن يعانقه ثم همس فى أذنه «لا تتكلم» ثم التفت ناحية الآخرين وتمتم قائلاً :

« اتركونى وحيدا معه ... ولقد أخبرتكم أننى لن أحاول الهروب ... لكم أن تسجنونا ها هنا ... ولكن ... بعد أن تدعونا على انفراد »

وخرج الجميع فتهالك سافنيان على الفراش دون أن يفهم شيئا مما جرى . واقترب منه فرنسوا وأمسك بيديه قائلا :

انتبه إلى ... إنني متأكد من أنك سرقت تلك القطع الذهبية لشراء هدية لاحدى فتياتك ... وإن هذا ليكلفك ستة أشهر فى السجن ... لا تلبث بعدها أن ترجع إليه ثانية . ستكون طريد البوليس والقضاء . إننى أعلم ذلك تماما فلقد مكثت سبعة أعوام فى مدرسة الاصلاح .. وستة مثلها فى سانت بلاجيه ثم ثلاثة أخرى فى بيوس وأخيرا .. خمسة فى تولون . والآن .. لا تخف فلقد رتبت كل شئ وأخذتها على عاتقى

وتمتم سافنيان بصوت فيه رنة الأمل « ... إن ذلك لمروع جدا » ولكن جين فرنسوا استمر قائلا :

عند ما يتوجه الأخ الأكبر للحرب فلا يحاول الأصغر الذهاب ... إننى بدلا منك وهذا كل شئ إنك تهتم بى قليلا ... أليس كذلك ياسافنيان ؟ ؟ إذا فكن رجلا ولا ترفض . إنهم كانوا سيأخذوننى فى تلك الأيام مرة أخرى لأننى هارب من المنفى ، إننى أؤمل ذلك ولا أطلب منك شيئاً . . فقط ... أن تعدنى بأن لا تعود . . . لذلك مرة أخرى . لقد أحببتك ياسافنيان ولقد بعثت صداقتك السعادة إلى قلبى بعد أن تفقدتها عبثا قبل أن ألقاك . ولقد كنت حينئذ صادقا وأمينا كما كنت أود أن أكون دائماً . قد كان يكون ذلك لو أنه قد كان لى أب مثلك وأم لتعلمنى الصلاة . والشئ الوحيد الذى آسف له فى حياتى هو أننى لم أكن مفيدا لك . وأخيرا ... لاتبك ياصديقى وهيا لتعانقنى إذ أننى أسمع وقع أقدام ثقيلة على الدرج . . . إنهم هم مع الجنود وليس من المستحسن أن يعرفوا مبلغ صداقتنا

وجذب فرنسوا سافنيان إلى صدره . . وسرعان مادفعه إلى الأمام فى نفس اللحظة التى فتح فيها الباب . كانوا جميعهم : صاحب النزل والرجل العجوز الذى أحضر رجال البوليس

وتقدم جين فرنسوا ليترك ماداً يديه للقيد وهو يتمتم ضاحكا : « أوه . إنه الحظ السيئ أخيرا »

وهو الآن فى قايين ... يقضى بقية أيام حياته كمجرم لا يمكن إصلاحه .

عادل الجمال